

المسجد الحرام ومكائنه فى الإسلام

أ.د. محمد نبيل غنايم *

موضوعنا هو عناصر المسجد الحرام ومكائنه فى الإسلام ،
فالموضوع محدد وغايته واضحة وهى إبراز هذه المكائنه لترسيخها فى
نفوس المسلمين حتى يحافظوا عليها، ويقوموا بما تستحقه من الزيارة
والعبادة والقرب ودحض ما يثيره أعداء الإسلام نحو ذلك من شبهات .
والمادة اللغوية هى " س. ج. د " ومشتقاتها ، وهى كما جاء فى
المعاجم اللغوية تعنى الخضوع والطاعة ويتم ذلك بوضع الجبهة على
الأرض والاحتناء ، يقال : سجد يسجد سجوداً ، خضع وتطامن و - وضع
جبهته على الأرض فهو ساجد والجمع سجد وسجود ، والسفينة للريح :
أطاعتها ومالت بميلها ، وأسجد : طأطأ رأسه واتحنى ، والساجد : يقال

* أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

فلان ساجد المنخر : ذليل خاضع ، والسَّجَاد : الكثير السجود ، والمسجد :
الجهة حيث يكون ندب السجود ، والجمع مساجد ، والمساجد من بدن
الإنسان : الأعضاء التي يسجد عليها وهي الجهة والأنف واليدان
والركبتان والقدمان .

والمسجد : مصلى الجماعة ، والمسجد الحرام : الكعبة . والمسجد
الأقصى : مسجد بيت المقدس ، وفي التنزيل العزيز (سبحانه الذي أسرى
بعده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله)^(١) ،
والجمع مساجد^(٢) .

ولما كان موضوعنا هو " المسجد الحرام " فقد رجعنا إلى المعجم
المفهرس لألفاظ القرآن الكريم فوجدنا أن هذه المادة " س. ج. د "
ومشتقاتها قد ذكرت في اثنين وتسعين موضعاً^(٣) . والذي يهمنا منها
خمس عشرة موضعاً ، هي ما يخص المسجد الحرام وهي :

أ- قوله تعالى : (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها
فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره
وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما
يعلمون)^(٤) .

ب- قوله تعالى : (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام
وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون)^(٥) .

(١) الإسراء .

(٢) المعجم الوسيط ص ٤١٦ .

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن : س. ج. د ص ٤٣٦ - ٤٣٨ .

(٤) البقرة ١٤٤ .

(٥) البقرة ١٤٩ .

ج- قوله تعالى : (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لنلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون) (١).

د- قوله تعالى : (واقتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين) (٢).

هـ- قوله تعالى : (فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ، ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب) (٣).

و- قوله تعالى : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل) (٤).

ز- قوله تعالى : (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب) (٥).

(١) البقرة ١٥٠.

(٢) البقرة ١٩١.

(٣) البقرة ١٩٦.

(٤) البقرة ٢١٧.

(٥) المائدة ٢.

ح- قوله تعالى : (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون) ^(١).

ط- قوله تعالى : (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين) ^(٢).

ي - قوله تعالى : (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين) ^(٣).

ك- قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خلفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء الله إن الله عليم حكيم) ^(٤).

ل- قوله تعالى : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) ^(٥).

م- قوله تعالى : (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) ^(٦).

(١) الأنفال ٣٤.

(٢) للتوبة ٧.

(٣) للتوبة ١٩.

(٤) للتوبة ٢٨.

(٥) الإسراء ١.

(٦) الحج ٢٥.

ن- قوله تعالى : (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً) (١).

س- قوله تعالى : (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) (٢).

٤- وبالنظر في هذه الآيات الكريمة والسور التي تضمها يتبين أن المكي منها هو آية الإسراء فقط ، وأن الباقي مدني وترتيبه : آيات البقرة ثم الأنفال ، ثم الحج ، ثم الفتح ، ثم المائدة ، ثم التوبة (٣).

٥- وأما أسباب النزول فمنها :

أ- قوله تعالى (قد نرى تقلب وجهك في السماء . . . الآية) قال السيوطي: قوله تعالى : (سيقول السفهاء من الناس) الآيات (٤) قال ابن اسحاق : حدثني إسماعيل بن أبي خالد عن أبي اسحاق عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس ، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله فأنزل الله : (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) فقال رجل من المسلمين : وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة ، وكيف بصلاتنا قبل بيت المقدس ، فأنزل الله (وما كان الله ليضيع

(١) الفتح ٢٥.

(٢) الفتح ٢٧.

(٣) المصحف الشريف .

(٤) البقرة ١٤٢ - ١٤٩.

إيمانكم) وقال السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها فأنزل الله (سيقول السفهاء من الناس) إلى آخر الآية ، وله طرق بنحوه ^(١).

ب- قوله تعالى : (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لنلا يكون للناس عليكم حجة . .) قال السيوطي : أخرج ابن جرير من طريق السدي بأسانيداه قال : لما صرف النبي ﷺ نحو الكعبة بعد صلواته إلى بيت المقدس قال المشركون من أهل مكة : تحير على محمد دينه ، فتوجه بقبلته إليكم وعلم أنكم أهدى منه سبيلا ، ويوشك أن يدخل دينكم ، فأنزل الله : (لنلا يكون للناس عليكم حجة) الآية ^(٢).

ج- قوله تعالى : (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ... الآيات) ^(٣) . قال السيوطي : أخرج الواحدى من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآيات فى صلح الحديبية ، وذلك أن رسول الله ﷺ لما صد عن البيت الحرام ثم صالحه المشركون على أن يرجع عامه القابل ، فلما كان العام القابل تجهز هو وأصحابه لعمرة القضاء وخافوا ألا تفى قريش بذلك وأن يصدوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم وكره أصحابه قتالهم فى الشهر الحرام فأنزل الله ذلك ، وأخرج ابن جرير عن قتاده قال أقبل نبي الله ﷺ وأصحابه معتمرين فى ذى القعدة ومعهم الهدى حتى إذا كانوا بالحديبية صدهم المشركون وصالحهم النبي ﷺ على أن يرجع من عامه ذلك ثم يرجع من العام

^(١) لباب القول ص ٥٩ / ٦٠.

^(٢) المسابق ص ٦١.

^(٣) البقرة ١٩٠ - ١٩٤.

المقبل ، فلما كان العام المقبل أقبل وأصحابه حتى دخلوا مكة معتمرين في ذى القعدة فأقام بها ثلاث ليال ، وكان المشركون قد فخروا عليه حين ردوه فأقصد الله منهم ، فأدخله مكة في ذلك الشهر الذي كانوا ردوه فيه ، فأنزل الله : (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص)^(١).

د- قوله تعالى : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه .. الآية) قال السيوطي : أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الكبير والبيهقي في سننه عن جندب ابن عبدالله أن رسول الله ﷺ بعث رهطا، وبعث عليهم عبدالله بن جحش فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى ، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام ، فأنزل الله تعالى : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) الآية فقال بعضهم : إن لم يكونوا أصابوا وزرا أليس لهم أجر فأنزل الله : (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم)^(٢) وأخرجه ابن منده في الصحابة من طريق عثمان بن عطاء عن أبيه عن ابن عباس^(٣) .

هـ - قوله تعالى : (ولا يجرمك شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا .) قال السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال : كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صداهم المشركون عن البيت ، وقد اشتد ذلك عليهم فمر بهم أناس من المشركين من أهل

(١) لباب القول من ٩٠ / ٩٢.

(٢) لبقرة ٢١٨.

(٣) لباب القول من ١١٠ / ١١٢.

المشرق يريدون العرة ، فقال أصحاب النبي ﷺ نصدهم كما صدوا أصحابنا ، فأنزل الله (ولا يجرمنك) الآية ^(١) .

و- قوله تعالى (ما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام . .) الآية قال السيوطي : " أخرج جرير عن سعيد بن جبير في قوله (وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق) الآية قال نزلت في النضر بن الحارث ، وروى البخاري عن أنس قال قال أبو جهل بن هشام : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فنزلت (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) الآية ، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون : غفرتك غفرتك ، فأنزل الله : (وما كان الله ليعذبهم) الآية وأخرج ابن جرير عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قال : قالت قريش بعضها لبعض : محمد أكرمه الله من بيننا ، اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء " الآية ، فلما أمسوا ندموا على ما قالوا فقالوا غفرتك اللهم ، فأنزل الله : (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وكان أولئك البقية من المسلمين الذين بقوا فيها يستغفرون ، فلما خرجوا أنزل الله (وما لهم ألا يعذبهم الله) الآية فأنزل في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم ^(٢) .

ز- قوله تعالى : (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام . .) الآية قال السيوطي : قوله تعالى : (ما كان للمشركين . .) الآيات أخرج ابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : قال العباس حين أسر يوم بدر : إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة

(١) السابق من ٣٠٩ / ٣١٠ .

(٢) لباب القول من ٤١٤ / ٤١٦ .

والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ، ونسقى الحاج ، ونفك العاتى ،
فأنزل الله : (أجعلتم سقاية الحاج) الآية ، وأخرج مسلم وابن حبان
وأبو داود عن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله ﷺ
فى نفر من أصحابه ، فقال رجل منهم ما أبالى أنى لا أعمل لله عملا
بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج ، وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام ،
وقال آخر : بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتم ، فزجره عمر وقل :
لا ترفعوا صوتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ، ولكن
إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم
فيه ، فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام . .)
الآية إلى قوله (لا يهدى القوم الظالمين) ، وأخرج الغريابى عن ابن
سيرين قال : قدم على بن أبى طالب مكة فقال للعباس : أى عم ، ألا
تهاجر ؟ ! ألا تلحق برسول الله ﷺ ؟ فقال : أعر المسجد وأحجب
البيت ، فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج) الآية ، وقال لقوم سماهم :
ألا تهاجروا ؟ ألا تلحقوا برسول الله ﷺ ؟ فقالوا نقيم إخواننا
وعشائرنا ومساكننا فأنزل الله (قل إن كان آباؤكم . .) الآية كلها
وأخرج عبدالرازق عن شعبة نحوه ، وأخرج ابن جرير عن محمد بن
كعب القرظى قال : افتخر طلحة بن شيبة والعباس وعلى بن أبى طالب ،
فقال طلحة : أنا صاحب البيت معى مفتاحه ، وقال العباس : أنا صاحب
السقاية والقائم عليها ، فقال على : لقد صليت إلى القبلة قبل الناس ،
وأنا صاحب الجهاد ، فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج) الآية كلها (١).

(١) السابق ص ٤٣٥ - ٤٣٩.

ح- قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام . .) الآية . قال السيوطي : قوله تعالى : (وإن خفتם عيلة) الآية ، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : " كان المشركون يجلبون إلى البيت ، ويجلبون معهم بالطعام يتجرون فيه فلما نهوا عن أن يأتوا البيت ، قال المسلمون : من أين لنا الطعام ، فأنزل الله (وإن خفتם عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن سعد بن خيرة قال : لما نزلت (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) شق ذلك على المسلمين ، وقالوا : يأتينا بالطعام والمتاع فأنزل الله (وإن خفتם عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) وأخرج مثله عن عكرمة وعطية العوفى والضحاك وقتاده وغيرهم " (١).

ط- قوله تعالى : (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام . .) الآية قال السيوطي : قوله تعالى (ومن يرد فيه بإلحاد) الآية أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : بعث النبي ﷺ عبد الله بن أنيس مع رجلين أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار ، فافتخروا في الأنساب فغضب عبد الله بن أنيس فقتل الأنصاري ثم ارتد عن الإسلام وهرب إلى مكة فنزلت فيه (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم) الآية (٢).

ي- قوله تعالى : (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام . .) الآية قال السيوطي : أخرج الطبراني وأبو يعلى عن أبي جمعة ، جنيد بن سبيع قال : قاتلت النبي ﷺ أول النهار كافرا ، وقاتلت معه آخر النهار مسلما ، وكنا ثلاثة رجال وسبع نسوة وفيما نزلت (ولولا رجال

(١) لباب القول ص ٤٤٠ / ٤٤١.

(٢) السابق ص ٥٤٨.

مؤمنون ونساء مؤمنات (^(١)).

ك- قوله تعالى : (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام . .) الآية قال السيوطي : " أخرج الفريابي وعبد بن حميد والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال : أرى النبي ﷺ وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، فلما نحر الهدى بالحديبية قال أصحابه : أين رؤياك يا رسول الله ؟ فنزلت (لقد صدق الله رسوله الرؤيا) الآية ^(٢) وبعد أن عرفنا أسباب النزول ننقل إلى الفقرة التالية :

٦- المعاني والأحكام :

أ- ما المراد بالمسجد الحرام ؟

هل هو الكعبة وما حولها من الصحن والإضافات التي تمت فيه للتوسعة على الطائفين والمصلين حتى أصبح المسعى جزءا منه ؟ أو هو الحرم جميعه الذي يشمل كل مكة وما حولها من الصحراء حتى المواقيت التي حددها رسول الله ﷺ أو إلى أدنى الحل حسب الأنصاب المعلومه ؟ إن الآيات الكريمة تشمل هذا وذاك ومعانيها تحتل هذا وذاك ، ولذا فإن من المفسرين من جعل المراد بالمسجد الحرام هو بيت الله العتيق " الكعبة " ومنهم من جعله الحرم كله ، وقد ترتب على هذا الاختلاف اختلافهم في بعض الأحكام كالنسخ والتعميم والتخصيص ، وقد حكى الشوكاني هذا الاختلاف في المواضع التي ذكر فيها المسجد الحرام فمن ذلك قوله في قوله تعالى : (قول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا

(١) السابق ص ٧١٤ / ٧١٥.

(٢) السابق ص ٧١٥ / ٧١٦.

وجوهكم شطره) قال : " ولا خلاف أن المراد بشطر المسجد هنا الكعبة ، وقد حكى القرطبي الإجماع على أن استقبال عين الكعبة فرض على المعين ، وعلى أن غير المعين يستقبل الناحية ويستدل على ذلك بما يمكنه الاستدلال به " ^(١) وقال في قوله تعالى : (ولا تقتلواهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلكم فيه) قال : اختلف أهل العلم في ذلك فذهبت طائفة إلى أنها محكمة وأنه لا يجوز القتال في الحرم إلا بعد أن يتعدى بالقتال فيه فإن فاته يجوز دفعه بالمقاتلة له وهذا هو الحق ، وقالت طائفة : إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) ويجاب عن هذا الاستدلال بأن الجمع ممكن ببناء عام على الخاص فيقتل المشرك حيث وجد إلا بالحرم ، ومما يؤيد ذلك قوله ﷺ " إنها لم تحل لأحد قبلي وإنما أحلت لي ساعة من نهار " ^(٢) وهو في الصحيح ، وقد احتج القائلون بالنسخ بقتله ﷺ لابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ، ويجاب عنه بأنه وقع في تلك الساعة التي أحل الله لرسوله ﷺ " ^(٣) وقال في قوله تعالى (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله . .) قال : " والصد عن المسجد الحرام وإخراج أهل الحرم منه أكبر عند الله أي أعظم إنما وأشد ذنبا من القتال في الشهر الحرام " ^(٤) وقال في قوله تعالى : (سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) قال قال الحسن وقتاده : يعني المسجد نفسه وهو ظاهر

(١) فتح القدير ج ١ ص ١٥٣ . وانظر : الجمع لأحكام القرآن للقرطبي .

(٢) متفق عليه .

(٣) فتح القدير ج ١ ص ١٩١ .

(٤) فتح القدير ج ١ ص ٢١٧ .

القرآن ، وقال عامة المفسرين : أسرى برسول الله ﷺ من دار أم هانئ فحملوا المسجد الحرام على مكة أو الحرم لإحاطة كل واحد منهما بالمسجد الحرام ، أو لأن الحرم كله مسجد (^(١)) . وقال في قوله تعالى : " إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد . . " قال : قيل المراد به المسجد نفسه كما هو الظاهر من هذا النظم القرآنى ، وقيل الحرم كله لأن المشركين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عنه يوم الحديبية ، وقيل المراد به مكة بدليل قوله (الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد) أى جعلناه للناس على العموم يصلون فيه ويطوفون به مستويا فيه العاكف وهو المقيم فيه الملازم له والباد أى الواصل من البادية والمراد به الطارئ عليه من غير فرق بين كونه من أهل البادية أو من غيرهم " . وقد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله (والمسجد الحرام) قال : الحرم كله وهو المسجد الحرام ^(٢) وقال فى قوله تعالى : (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام) يعنى كفار مكة ومعنى صدوهم عن المسجد الحرام أنهم منعوههم أن يطوفوا به ويحلوا عن عمرتهم ^(٣) وهكذا يتبين أن " المسجد الحرام " قد يراد به خصوص المسجد المحيط بالكعبة وقد يراد به مكة كلها أو الحرم كله ، ونحن مع التعميم فالمسجد الحرام هو مكة كلها ، والحرم كله ذلك أن المكان يكتسب مكانته من مكانة ما يجاوره ، فإذا كان البيت العتيق أو الكعبة هى أعظم بناء وأطهر بقعة فى الأرض فإن حريمها وما يحيط بها من مكة والحرم يكتسبان منها تلك المكانة وذلك التعظيم لأن حريم البيت

(١) السابق ج ٣ ص ٢٠٦ .

(٢) السابق ج ٥ ص ٥٣ .

(٣) السابق ج ٥ ص ٥٣ .

يتبعه ، كيف وقد أقسم الله تعالى بمكة في أكثر من آية منها قوله :
 (لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد) (١). وقوله (والتين والزيتون
 وطور سنين وهذا البلد الأمين) (٢) ولا يعنى ذلك المساواة بين الأصل
 والتابع فتبقى الكعبة والبيت العتيق أفضل بناء في الأرض ويتبعهما في
 الأفضلية مكة والحرم قال تعالى : (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة
 مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا
 والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى
 عن العالمين) (٣). وقال (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) (٤)
 وقال : (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى
 وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع
 السجود) (٥) . وقال (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة
 ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم
 شطره) . والخلاصة أننا مع القائلين بأن المسجد الحرام يعنى الحرم كله
 بما فيه مكة والكعبة ، ومما يؤكد ذلك بالإضافة إلى ما سبق ما جاء في
 الآثار (٦).

(١) سورة البند ٢/١ .

(٢) سورة التين ١ - ٣ .

(٣) آل عمران ٩٦ / ٩٧ .

(٤) المائدة ٩٧ .

(٥) البقرة ١٢٥ .

(٦) في تفسير قوله تعالى : (ذلك لمن يكن أهله حاضرا المسجد الحرام) فقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن
 حميد عن عطاء قال : ست قريات عرفة وعرة والرجيع والنخلتان ومن الطهران وضحان ، وقال
 مجاهد : هم أهل الحرم ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال هم أهل الحرم وأخرج
 ابن المنذر عن ابن عمر مثله . فظهر : فتح الكبير ج ١ ص ١٩٩ .

ب- فرض الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها استقبال الكعبة في الصلاة ، وقد تقدمت الآيات التي دلت على ذلك من أول قوله (فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) . . إلى قوله (لئلا يكون للناس عليكم حجة) وقد بين العلماء ذلك للقريب من الكعبة والبعيد عنها قال الشوكاني : ولا خلاف أن المراد بشطر المسجد هنا الكعبة ، وقد حكى القرطبي الإجماع على أن استقبال عين الكعبة فرض على المعايين ، وعلى أن غير المعايين يستقبل الناحية ، ويستدل على ذلك - الناحية - بما يمكنه الاستدلال " فمن كان عند الكعبة وجب عليه استقبالها في فرضه ونفله وتطوعه ، ومن كان بعيدا عنها اجتهد في تحديد ناحيتها إن لم يمكنه معرفتها ويسقط هذا الاستقبال عند العجز عنه كالسفر بالوسائل الحديثة ، كما يسقط الوجوب في النوافل ، وفي حالات المرض ، وصلاة الخوف عند التحام الصفوف ، وقد نسخ هذا الفرض باستقبال الكعبة ما كان مفروضا من قبل باستقبال بيت المقدس منذ فرضت الصلاة ليلة الإسراء والمعراج وقد استمر استقبال بيت المقدس سنة وبضعة أشهر قبل الهجرة وبعدها فلما تحدث اليهود في ذلك وقالوا : " محمد يصلى إلى قبلتنا فهو على مثلنا " كره ذلك رسول الله ﷺ وسأل الله تعالى تحويل القبلة فأجاب الله دعاءه وأمره بالتوجه إلى الكعبة ، ثم إن السفهاء من اليهود تكلموا في ذلك وقالوا للمسلمين ضاعت صلاتكم السابقة فأنزل الله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) وقد مر علينا في أسباب النزول بيان ذلك ، وقد أخرج ابن ماجة عن البراء قال : صلينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهرا ، وصرفت القبلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى

المدينة بشهرين ، وكان رسول الله ﷺ إذ صلى إلى بيت المقدس أكثر
تقلب وجهه في السماء ، وعلم الله من قلب نبيه أنه يهوى الكعبة ،
فصعد جبريل فجعل رسول الله ﷺ يتبعه بصره وهو يصعد بين السماء
والأرض ينظر ما يأتيه به فأنزل الله : (قد نرى تقلب وجهك في
السماء) الآية فقال رسول الله ﷺ : يا جبريل كيف حالنا في صلاتنا
إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله (وما كان الله ليضيع إيمانكم) وأخرجه
الطبراني من حديث معاذ مختصر لكنه قال : سبعة عشر شهرا ، وأخرج
البيهقي في سننه عن ابن عباس مرفوعا قال : البيت قبله لأهل المسجد ،
والمسجد قبله لأهل الحرم ، والحرم قبله لأهل الأرض في مشارقها
ومغربها من أمتي ^(١).

وقد كرر سبحانه وتعالى هذا الفرض باستقبال الكعبة عدة مرات كما
مر في آيات سورة البقرة وذلك لتأكيد هذا الأمر وترسيخه في نفوس
المؤمنين " وللاهتمام به لأن موقع التحويل كان معتنى به في نفوسهم ،
وقيل أن التكرير كان لإزالة الشبهات من نفوسهم لأن النسخ من مكان
الفتنة ومواطن الشبهة فإذا سمعوه مرة بعد أخرى ثبتوا واندفع ما يختلج
في صدورهم ، وقيل إنه كرر هذا الحكم لتعدد علله فإنه سبحانه ذكر
للتحويل ثلاث علل : الأولى ابتغاء مرضاته ، والثانية جرى العادة الإلهية
أن يولى كل أهل ملة وصاحب دعوة جهة يستقل بها ، والثالثة دفع حجج
المخالفين فقرن بكل علة مطولها وقيل : أراد بالأول (قول وجهك شطر
المسجد الحرام) ول وجهك شطر الكعبة إذا صليت تلقاءها ، ثم قال :
(وحيثما كنتم) معاصر المسلمين في سائر المساجد بالمدينة وغيرها

(١) فتح القدير ج ١ ص ١٥٥.

(فولوا وجوهكم شطره) ، ثم قال : (ومن حيث خرجت) يعنى وجوب الاستقبال فى الأسفار ، فكان هذا أمرا بالتوجه إلى الكعبة فى جميع المواطن من نواحي الأرض ^(١) .

ج- أمر الله تعالى المؤمنون - وهم أولياء المسجد الحرام - أن يحافظوا على عهودهم مع غير المؤمنين ما داموا يحترمون العهود ويحافظون على الوفاء بها ، فإن أخلوا بما عاهدوا عليه كان على المؤمنين أن يعاملوهم بالمثل وينقضوا عهدهم معهم ، وكان رسول الله ﷺ قد عاهد بعض المشركين فنقضوا عهدهم وتخرج رسول الله ﷺ وأصحابه من نقض العهد فأذن الله تعالى لهم فى النقض وبين لهم أن الوفاء لا يجب إلا لمن وفى أما من يخون وينقض فمن العجيب والمنكر الوفاء له (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا للذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين) والمعنى كيف يكون للمشركين عهد عند الله يأمنون به عذابه ، وقيل : محال أن يثبت لهؤلاء عهد وهم أضداد لكم مضمرون للغدر فلا يطمعوا فى ذلك ولا يحدثوا به أنفسهم ، لكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ولم ينقضوا ولم ينكثوا فلا تقاتلوهم ، فما داموا مستقيمين لكم على العهد الذى بينكم وبينهم فاستقيموا لهم ، لأن الوفاء بالعهد والاستقامة عليه من أعمال المتقين فيكون ذلك تعليلا للأمر بالاستقامة معهم وهم بنو بكر ، وقيل بنو كنانة وبنو ضمرة وقيل غير ذلك فقد أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : قرئ ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد نحوه ، وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن

(١) فتح البدير ج ١ ص ١٥٦ .

مقاتل قال : كان النبي ﷺ عاهد أناسا من بنى ضمرة بنى بكر وكنانة خاصة ، عاهدهم عند المسجد الحرام ، وجعل مدتهم أربعة أشهر وهم الذين ذكر الله في هذه الآية يقول : ما وفوا لكم بالعهد فوفوا لهم ، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال هم بنو جذيمة وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال هو يوم الحديبية (١).

د- نهى الله تعالى في أول الأمر عن القتال في المسجد الحرام - أي الحرم - وأمر النبي ﷺ بالصبر على أذى المشركين واعتدائهم على المسلمين ثم نسخ الله تعالى ذلك وأذن لرسوله ﷺ وأصحابه بقتال المشركين في كل زمان وفي كل مكان بما في ذلك المسجد الحرام ، فقد قال تعالى في أول الأمر : (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين) ثم قال (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عن الله) ثم قال (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) قال الشوكاني في قوله تعالى (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام) اختلف أهل العلم في ذلك فذهب طائفة إلى أنها محكمة ، وأنه لا يجوز القتال في الحرم إلا بعد أن يتعدى بالقتال فيه ، فإنه يجوز دفعه بالمقاتلة له وهذا هو الحق ، وقالت طائفة : إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) ويجب عن هذا الاستدلال بأن الجمع ممكن ببناء العام على الخاص ، فيقتل المشرك حيث وجد إلا بالحرم ، ومما يؤيد ذلك قوله ﷺ : إنها لم تحل لأحد قبلي ، وإنما أحلت لي ساعة من نهار " وهو في الصحيح ،

(١) نظر فتح القدير ج ٢ ص ٣٣٩ ، ص ٣٤٠ .

وقد احتج القائلون بالنسخ بقتله ﷺ لابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ، ويجب عنه بأنه وقع فى تلك الساعة التى أحل الله لرسوله ﷺ ، وأخرج ابن أبى شيبه وعبد الحميد وأبو داود فى ناسخه عن قتاده أن قوله (ولا تقتلوه عند المسجد الحرام) وقوله (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . .) فكان كذلك حتى نسخ هاتين الآيتين جميعا فى براءة قوله (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) ، (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة . .) (١).

وإنما نسخ الله تعالى الحكم الأول ، أو خصصه ، أو تدرج فى بيانه ، بالإذن فى قتال المشركين كافة ، وحيثما وجدوا ، لأنهم هم المعتدون فى جميع الأحوال حيث آذوا المسلمين ، وقتلوا بعضهم فى الأشهر الحرام ، وصدوهم عن المسجد الحرام ، وأخرجوهم منه ، وأكلوا أموالهم ، واغتصبوا ديارهم ، ولم يراعوا فى المسلمين عهدا ولا ذمة ، بل نقضوا وخاتوا ، فكان الأمر العام بقتالهم وقتلهم ولو فى الحرم جزاء وفاقا لما قاموا به نحو المسلمين وارتكبه فى حقهم (قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) (وما لهم ألا يغيظهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون) (هم الذين كفروا وصدوا عن المسجد الحرام والهدى معكوف أن يبلغ محله) (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلنا للناس سواء العاكف فيه والباد) وقد سبق بيان ذلك فى أسباب النزول وقصة السرية التى

(١) نظر فتح القدير ج ١ ص ١٩١.

أرسلها رسول الله ﷺ فقتلت ابن الحضرمي في الشهر الحرام .

هـ - وأهل الحرم يحرمون بالحج مفردا يوم التروية أو يوم التاسع يوم عرفة وليس لهم تمتعا بالعمره إلى الحج كأهل الآفاق ^(١) الذين لهم أن يتمتعوا بالعمره ثم يحلوا ثم يحرموا بالحج يوم التروية أو يوم عرفة ، كما لهم أن يقرنوا بين العمره والحج . وفي كلتا الحالتين وكلا النسكين عليهم هدى التمتع أو القران فإذا لم يقدروا عليه صام كل منهم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله ووطنه قال تعالى: (فمن تمتع بالعمره إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام) قال الشوكاني : والمراد بالتمتع المذكور في الآية أن يحرم الرجل بعمره ثم يقيم حلالا بمكة إلى أن يحرم بالحج ، فقد استباح بذلك ما لا يحل للمحرم استباحته وهو معنى تمتع واستمتع ، ولا خلاف بين أهل العلم في جواز التمتع بل هو عندى أفضل أنواع الحج ، وعلى هذا التمتع ما يتيسر من الهدى فمن لم يجد لعدم المال أو لعدم الحيوان صام ثلاثة أيام في أيام الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله . وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن عمر أنه ﷺ قال " فمن لم يجد فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله " ^(٢) . . وقوله: (ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام) الإشارة بقوله " ذلك " قيل إلى التمتع فتدل على أنه لا متعة لحاضري المسجد الحرام كما يقول أبو حنيفة وأصحابه ، وقالوا " وليس لأهل مكة تمتع ولا قران وإنما لهم الأفراد خاصة خلافا للشافعي ، والحجة عليه قوله تعالى (ذلك لمن لم

^(١) هذا أحد قولين وهناك قول آخر بأن لهم ذلك وهو المرجح كما سيأتي بعد .

^(٢) فتح القدير ج ١ ص ١٩٧ .

يكن أهله حاضري المسجد الحرام) ولأنه شرعهما للترفة بإسقاط إحدى السفرتين ، وهذا في حق الآفاقي ، ومن كان في داخل الميقات فهو بمنزلة المكي بخلاف المكي إذا خرج إلى الكوفة وقرن فيصبح لأن عمرته وحجته ميقاتيتان " فصار بمنزلة الآفاقي " ^(١) وقال الكمال ابن السهم : جاء في غاية البيان : ليس لأهل مكة تمتع ولا قران ، ومن تمتع منهم أو قرن كان عليه دم وهو دم جنابة لا يأكل منه ، وصح عن عمر رضي الله عنه أنه قال : ليس لأهل مكة تمتع ولا قران ، وقال في التحفة : ومع هذا لو تمتعوا جازوا وأساعوا وعليهم دم الجبر . . ثم قال : مدار احتجاج الشافعي على أن نسخ ترك العمرة في أشهر الحج عام في حق المكي وغيره ، ومعلوم شرعية الحج في حق الكل فجاز التمتع للكل ، وقوله تعالى (ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام) لا ينفيه إذ مرجع الإشارة إلى الهدى لا التمتع فنبت بذلك جواز المتعة لهم وسقوط الهدى عنهم " وقال ابن رشد : واتفق العلماء على أن من لم يكن من حاضري المسجد الحرام فهو متمتع ، واختلفوا في المكي : هل يقع منه التمتع أم لا يقع ؟ والذين قالوا إنه يقع منه اتفقوا على أنه ليس عليه دم لقوله تعالى : (ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام) واختلفوا فيمن هو حاضر المسجد الحرام ممن ليس هو : فقال مالك : حاضرو المسجد الحرام هم أهل مكة وذو طوى وما كان مثل ذلك من مكة ، وقال أبو حنيفة : هم أهل المواقيت فمن دونهم إلى مكة ، وقال الشافعي بمصر : من كان بينه وبين مكة ليلتان وهو أكمل المواقيت ، وقال أهل الظاهر : من كان ساكن الحرم ، وقال الثوري : هم أهل مكة فقط وأبو حنيفة يقول : إن حاضري المسجد الحرام لا يقع

(١) الهداية شرح بداية المبتدى للمرخياتي بهامش شرح فتح القدير ج ٣ ص ١٠ / ١٤ .

منهم التمتع وكره ذلك مالك ^(١).

والراجع من هذه الأقوال أن التمتع يصح من حاضري المسجد الحرام ومن الآفاقيين لأنه نسك مشروع ولم يرد في الشرع ما يمنعه والفرق بين حاضريه وغيرهم أن حاضريه لا دم عليهم أما الآفاقيون فعليهم الدم ، ومما يوضح ذلك ما قاله ابن قدامة في هذا المجال ومنه " ولا خلاف بين أهل العلم في أن دم المتعة لا يجب على حاضري المسجد الحرام إذ قد نص الله تعالى في كتابه بقوله : (ذلك لمن يكن أهله حاضري المسجد الحرام) ولأن حاضري المسجد الحرام ميقاته مكة فلم يحصل له الترفة بأحد السفرين ، ولأنه أحرم بالحج من ميقاته فأشبهه المفرد وحاضرو المسجد الحرام : أهل الحرم ، ومن بينه وبين مكة دون مسافة القصر ، فنص عليه أحمد وروى ذلك عن عطاء وبه قال الشافعي ، وقال مالك : أهل مكة وقال مجاهد : أهل الحرم ، وروى ذلك عن طاوس ، وقال مكحول وأصحاب الرأي : من دون الميقات لأنه موضع شرع فيه النسك فأشبهه الحرم . وقال : إن خرج المكي مسافرا غير متنقل ، ثم عاد فاعتمر من الميقات أو قصر وحج من عامه فلا دم عليه لأنه لم يخرج بهذا السفر عن كون أهله من حاضري المسجد الحرام ، وهذا الشرط - لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام - لوجوب الدم عليه وليس بشرط لكونه متمتعا ، فإن متعة المكي صحيحة ، لأن التمتع أحد الأنساك الثلاثة ، فصح من المكي كالنسكين الآخرين ، ولأن حقيقة التمتع : هو أن يعتمر في أشهر الحج ثم يحج من عامه ، وهذا موجود في المكي ، وقد نقل عن أحمد : ليس على أهل مكة متعة ، ومعناه : ليس عليهم دم متعة لأن المتعة له لا عليه ^(٢)

^(١) بداية المجتهد ج ٢ ص ٦٤٧ / ٦٤٨.

^(٢) المفتي ج ٣ ص ٤١٤ / ٤١٥.

فتبين من هذا أن جمهور الفقهاء على أن المتعة للجميع وأنها عبارة عن أداء العمرة في أشهر الحج ثم الحج في نفس العام وأن الصحيح أن الدم فيها للآفاقي لأنه فرق بترك أحد السفرتين ، أما المكي فلم يترفعه فلا دم عليه وهذا هو المفهوم من قوله تعالى (فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك - الهدى - لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام). وقد أفادنا هذا الكلام الفقهي بالإضافة إلى حكم التمتع دلالة المسجد الحرام على المعنى الواسع الذي اخترناه سابقا وهو الحرم كله بما فيه مكة وليس المسجد المخصوص المعروف.

ثم حكى الشوكاني هذا الذي رجحناه بقوله " وقيل إنها " ذلك " راجعة إلى الحكم وهو وجوب الهدى أو الصيام فلا يجب ذلك على من كان من حاضري المسجد الحرام كما يقول الشافعي ومن وافقه والمراد بمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام : من لم يكن ساكنا في الحرم، أو من لم يكن ساكنا في المواقيت فما دونها على الخلاف في ذلك بين الأئمة " ^(١) وقد قدمنا ذلك من كلام ابن قدامة .

و- مكاة المسجد الحرام :

١- فقد جعله الله تعالى قبلة للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ففى أعظم عبادة يقومون بها بين يدي الله تعالى وهى الصلاة .

٢- حيث أمرهم الله تعالى بزيارته والطواف به والقيام عنده بأداء مناسك ركن آخر من أركان الإسلام وهو الحج أو العمرة قال تعالى : (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق.

(١) فتح البدير ج١ ص ١٩٧ .

ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم
من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقتضوا تفثهم
وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق (^(١)) .

٣- وهو الموضع المحيط بالكعبة التي أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام
ببنائها وبوأ له مكانها وقواعدها وأمره بتطهيرها من كل ما سوى الله
تعالى كما قال عز وجل (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي
شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود) (^(٢)) وقال : (وإذ
يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت
السميع العليم) (^(٣)) .

٤- وهو الموضع الذي أنزل الله منه جبريل عليه السلام ليعلم إبراهيم
ومن بعده محمد ﷺ مناسك الحج (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن
ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب
الرحيم) (^(٤)) أخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن مجاهد قال :
قال إبراهيم : رب أرنا مناسكنا فأتاه جبريل فأتى به البيت فقال : ارفع
القواعد فرفع القواعد وأتم البنيان ، ثم أخذ بيده فأخرجه فأتى به
نحو منى ، فلما كان عند العقبة فإذا إبليس قائم عند الشجرة فقال :
كبر وارمه ، فكبر ورماه ، فذهب إبليس حتى أتى الجمرة الوسطى
ففعل به إبراهيم كما فعل في الأولى ، ثم كذلك في الجمرة الثالثة ، ثم
أخذ جبريل بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام فقال : هذا المشعر

(١) الحج ٢٧ / ٢٩ .

(٢) الحج ٢٦ .

(٣) البقرة ١٢٧ .

(٤) البقرة ١٢٨ .

الحرام ، ثم ذهب حتى أتى به عرفات قال : وقد عرفت ما أريدك ؟
 قالها ثلاثا ، قال نعم ، قال فلأذن فى الناس بالحج ، قال : وكيف أؤذن ؟
 قال : قل يا أيها الناس أجيئوا ربكم ثلاث مرات ، فأجاب العباد : لبيك
 اللهم لبيك ، فمن أجاب إبراهيم يومئذ من الخلق فهو حاج . وأخرج
 ابن جرير من طريق ابن المسيب عن على قال : لما فرغ إبراهيم من
 بناء البيت قال : قد فعلت أى رب فأرنا مناسكنا ، أبرزها لنا علمناها ،
 فبعث الله جبريل فحج به . وفى الباب آثار كثيرة عن السلف من
 الصحابة ومن بعدهم تتضمن أن جبريل أرى إبراهيم المناسك ، وفى
 أكثرها أن للشيطان تعرض له كما تقدم عن مجاهد ، وقد أخرج ابن
 حزيمة والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن ابن
 عباس نحو ذلك ، وكذلك أخرج عنه أحمد وابن أبى حاتم والبيهقى ^(١) .

٥- وهو الموضع الذى استجاب الله فيه دعاء إبراهيم لنفسه ولولده
 ولأمته ووعد الصالحين منهم بذلك كما قال تعالى : (وإذ قال إبراهيم
 رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام . رب إنهن
 أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإتك غفور
 رحيم . ربنا إبنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك
 المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم
 وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن
 وما يخفى على الله من شئ فى الأرض ولا فى السماء . الحمد لله
 الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربه لسميع الدعاء . رب
 اجعلنى مقيم للصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفر لى

(١) فتح البقىر ج ١ ص ١٤٣ / ١٤٤ .

ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب (^(١)) .

وقال : (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) (^(٢)) . وقال : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) (^(٣)) وقد حقق الله تعالى جميع ذلك وأكثر منه .

٦- وهو الموضع الذى جعله تعالى مثابة للناس يرجعون إليه من كل مكان فى شوق وحنين وجعله مأمنا وأمانا من كل خوف ، وجعله قواما للناس ومقيما لحياتهم ومصلحهم ما تمسكوا به وأدوا حقوقه قال تعالى (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) (^(٤)) وقال : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) (^(٥)) . وقال (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) (^(٦)) والمعنى أنه دار لمعاشهم ودينهم أى يقومون فيه بما يصلح دينهم ودنياهم ، يأمن فيه خائفهم ، وينصر فيه ضعيفهم ، ويربح فيه تجارهم ، ويتعبد فيه متعبدهم (^(٧)) وقال تعالى : (أو لم نمكن لهم حرما

(١) إبراهيم ٣٥ - ٤١ .

(٢) البقرة ١٢٦ .

(٣) البقرة ١٢٩ .

(٤) البقرة ١٢٥ .

(٥) آل عمران ٩٦ / ٩٧ وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرها عن أبى ذر قال : قلت يا رسول الله أى مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام ، قلت ثم أى ؟ قال المسجد الأقصى ، قلت : كم بينهما ؟ قال أربعون سنة .

(٦) المائدة ٩٧ .

(٧) تظرفتح القدير ج ٢ ص ٧٩ .

آمنا يجبي إليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا (^(١)) . وكانوا من قبلوه يتخطفون من كل جانب باعترافهم وكما يحدث لجيراتهم كما قال تعالى : (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) (^(٢)) . والتخطف هو القتل والسبي .

٧- وهو الموضع الذى اختاره الله تعالى على نسق البيت المعمور فى السماء حتى يطوف الناس به كما تطوف الملائكة بالبيت المعمور ، وكان الله تعالى قد أمر الملائكة ببناؤه أولا ، ثم أمر آدم ببناؤه ثانيا ، ثم لما أغرقه الطوفان بوأ لإبراهيم مكانه وقواعده وأمره برفعها فكان البيت الحرام ، قال الشوكاتى فى وصف البيت المعمور : فى السماء السابعة ، وقيل فى سماء الدنيا ، وقيل : هو الكعبة ، فعلى القولين الأولين يكون وصفه بالعمارة باعتبار من يدخل إليه من الملائكة ويعبد الله فيه ، وعلى القول الثالث يكون وصفه بالعمارة حقيقة ، أو مجازا باعتبار كثرة من يتعبد فيه من بنى آدم " (^(٣)) . والصحيح الأولان قال الجلالان (^(٤)) : " والبيت المعمور " هو فى السماء الثالثة أو السادسة أو السابعة ، بحيال الكعبة يزروه كل يوم سبعون ألف ملك بالطواف والصلاة لا يعودون إليه أبدا - أى لكثرة غيرهم ، وقد ورد فى حديث الإسراء والمعراج أن رسول الله ﷺ رآه ورأى أبانا إبراهيم مسندا ظهره إليه . وفى تشبيه البيت الحرام بالبيت المعمور وبناؤه على سمته من التعظيم والمكانة ما لا يمكن وصفه ولا تقديره !

(١) القصص ٥٧ .

(٢) العنكبوت ٦٧ .

(٣) فتح القدير ج ٥ ص ٩٤ .

(٤) السيوى والمعلى فى تفسيرهما المعروف ص ٦٩٧ بهامش المصحف .

٨- وهو الموضع الذى باركه الله تعالى وجمع فيه من الآيات ما لم يوجد فى غيره قال تعالى : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً) والبركة كثرة الخير الحاصل لمن يستقر فيه أو يقصده ، أى الثواب المتضاعف والآيات البينات الواضحات منها الصفا والمروة ، ومنها أثر القدم فى الصخرة الصماء - موضع قيام إبراهيم - ومنها أن الغيث إذا كان بناحية الركن اليماني كان الخصب فى اليمن ، وإن كان بناحية الشامى كان الخصب بالشام ، وإذا عم البيت كان الخصب فى جميع البلدان ، ومنها انحراف الطيور عن أن تمر على هوائه فى جميع الأزمان ، ومنها هلاك من يقصده من الجبابرة ^(١) كما حدث مع أبرهة وجيشه ، ومن أمثلة بركته أن الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه كما جاء فى الحديث الصحيح ، وأنه أول المساجد الثلاث التى لا تشد الرحال إلا إليها كما جاء فى الحديث الصحيح لتحصيل تلك المنافع وأمثالها ، ومن ذلك أن الله تعالى ينزل على زوار البيت الحرام مائة وعشرين رحمة : ستون للمصلين وأربعون للطائفين وعشرون للناظرين . ولا تتوقف بركاته ولا ينقطع أمنه حتى إن العلماء اختلفوا فىمن لجأ إلى الحرم وقد وجب عليه حد من الحدود هل يقام عليه الحد أو لا يقام حتى يخرج منه؟ فأبو حنيفة وأصحابه على أنه لا يقام عليه حتى يخرج ، والجمهور على إقامة الحد متى وجب حتى لا يكون ذريعة وضعفوا قول الآخرين ، وقد مال الصنعائى إلى المنع من إقامة الحدود فى المساجد لكن على أنه للتنزيه فلو أقيمت فلا حرج قال :

(١) فتح القدير ج ١٠ ص ٣٦٢.

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : " لا تقام الحدود فى المساجد " رواه الترمذى والحاكم وأخرجه ابن ماجه وفى إسناده إسماعيل بن مسلم المكى ضعيف من قبل حفظه ، وأخرجه أبو داود والحاكم وابن السكن والدرافتنى والبيهقى من حديث حكيم بن حزام ، ولا بأس بإسناده وله طرق أخرى وكلها متعاضدة وقد عمل به الصحابة ، فأخرج ابن أبى شيبه عن طارق بن شهاب قال : أتى عمر بن الخطاب برجل فى حد فقال أخرجاه من المسجد ثم اضرباه " وأسند على شرط الشيخين ، وأخرج عن على " أن رجلاً جاء إليه فساد ، فقال يا قنبر : أخرجه من المسجد فأقم عليه الحد" وفى سنده مقال ، وإلى عدم جواز إقامة الحد فى المسجد ذهب أحمد وإسحاق والكوفيون لما ذكر من الدليل ، وذهب ابن أبى ليلى والشعبى إلى جوازه ولم ينكرو له دليلاً ، وكأنه حمل النهى على التنزيه قال ابن بطلان : وقول من نزه المسجد أولى يريد قول الأولين " ^(١) ونحن مع الماتنين من إقامة الحدود فى المساجد بعامة وفى المسجد الحرام بخاصة إلا إذا دعت الضرورة لذلك أو يخرج المحدود ليقام عليه الحد .

٩- وقد جعل الله المسجد الحرام وما حوله من الحرم مكاناً مصوناً له قداسته فى الدخول فيه بنية النسك " الإحرام " وله محظورات يجب اجتنابها وله آداب وسنن ينبغى التحلى بها ، ومن ارتكب من هذه المحظورات شيئاً كانت عليه كفارة ، وكذلك أهل الحرم أنفسهم عليهم

^(١) سبل السلام ج ٤ ص ٣٢ / ٣٣ وأخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله " ومن دخله كان آمناً " قال : من عاد بالبيت أعلاه فبيت ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى فإذا خرج أخذ بنتبه ، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والأزرقي عن عمر بن الخطاب قال : لو وجدت فيه قاتل لخطب ما مسسته حتى يخرج منه " نظر : فتح القدير ج ١ ص ٣٦٢ / ٣٦٣ ، وشرح منتهى الإرادات ج ٣ ص ٣٤١ .

التزامات عديدة فمن هذا وذاك ما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية وهو كثير منه قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد) ^(١) وقوله تعالى : (وأنتم حرم) تشمل المحرمين وأهل الحرم . وقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام . أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيرة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذى إليه تحشرون) ^(٢) وقوله تعالى : (ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الشهدى محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) ^(٣) إلى غير ذلك.

ومن السنة ما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : " إن إبراهيم حرم مكة ، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضاها " ^(٤) أخرجه أحمد ومسلم والنسائى وغيرهم من حديث جابر وأنس وأبى هريرة وعائشة وغيرهم وعن النبى ﷺ أنه قال : " إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض وهى حرام إلى يوم القيامة " أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عباس ، وأخرجه الشيخان وأهل السنن من حديث

(١) المائدة ١ .

(٢) المائدة ٩٥ / ٩٦ .

(٣) البقرة ١٩٦ .

(٤) عضاها : نباتها البرى أو كل شجر له ثوك صغر أو كبير .

أبى هريرة، وأخرجه البخارى تطبيقاً ، وأخرجه ابن ماجه من حديث صفية بنت شيبة ، وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبى شريح العدوى قال : قام النبى ﷺ الغد من يوم الفتح فقال : " إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسلك بها دماً ولا يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا : إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لى ساعة من نهار ، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها أمس " .

١٠ - ساءى الله سبحانه وتعالى بين الكفر به والصد عن سبيله وعن المسجد الحرام وفى ذلك من الدلالة على تعظيم المسجد الحرام ومكانته ما فيه حيث جمع بين هذه المنكرات فى إطار واحد وإذا كانت غير متساوية فى الحقيقة حيث الكفر أكبرها فإن الوعيد الشديد يجمعها قال تعالى : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل) وقال سبحانه : (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) .

١١ - نوءد الله سبحانه وتعالى مرتكبى المعاصى فى المسجد الحرام بالعذاب الأليم وسمى ذلك ظلماً وميلاً وإلحاداً إلى الظلم ، وقد اختلف العلماء فى هذا الظلم والإلحاد به فقيل هو الشرك ، وقيل الشرك والقتل وقيل صيد حيواناته وقطع أشجاره وقيل هو الحلف فيه بالأيمان الفاجرة ، وقيل المراد المعاصى فيه على العموم ، وقيل المراد بهذه الآية أنه يعاقب بمجرد الإرادة للمعصية فى ذلك المكان - وإن لم

يفعلها - وقد ذهب إلى هذا ابن مسعود والضحاك وابن عمر وابن زيد وغيرهم حتى قالوا لو هم الرجل في الحرم يقتل رجل في عدن لعذب به الله ، والحاصل أن هذه الآية دلت على أن من كان في البيت الحرام مأخوذ بمجرد الإرادة للظلم فهي مخصصة لما ورد من أن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها ^(١). إلا أنه يقال إن الإرادة فيها زيادة على مجرد حديث النفس ^(٢).

١٢ - ومن جوانب هذه المكانة العظيمة أن الله تعالى ساوى في - المسجد الحرام بين المقيم فيه - العاكف - والباد - الطارئ عليه من غير أهله . قال تعالى : (والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد) وقد اختلف العلماء في المراد بهذه المساواة ف قيل إنها عامة في كل شيء . والمعنى جعلناه للناس على العموم يصلون فيه ويطوفون به مستويين فيه العاكف وهو المقيم فهو الملازم له ، والباد الواصل من البادية والمراد به الطارئ عليه من غير فرق بين كونه من أهل البادية أو من غيرهم . فما بال المشركين يصدون النبي ﷺ وأصحابه عنه كما حدث في الحديبية . واختلفوا في مكة فذهب مجاهد ومالك إلى أن دور مكة ومنازلها يستوى فيها المقيم والطارئ ، وذهب عمر بن الخطاب وابن عباس وجماعة إلى أن للقدام إن ينزل حيث وجد وعلى رب المنزل أن يؤويه شاء أم أبى ، وذهب الجمهور إلى أن دور مكة ومنازلها ليست كالمسجد الحرام ، ولأهلها منع الطارئ من النزول فيها ، والحاصل أن الكلام في هذا راجع إلى أصليين : الأصل

^(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : إن الله تجلوز لي عن فتى ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو

تصل به * متفق عليه .

^(٢) فتح الفقير ج ٣ ص ٤٤٧ .

الأول ما فى هذه الآية هل المراد بالمسجد المسجد نفسه أو جميع الحرم أو مكة على الخصوص ، والثانى هل كان فتح مكة صلحاً أو عنوة ؟ وعلى فرض أن فتحها كان عنوة هل أقرها النبى ﷺ فى بد أهلها على الخصوص ؟ أو جعلها لمن نزل بها على العموم ؟ (١) وسواء كان المراد هذا أو ذاك فإن الدلالة من المراد أيا كان على عظمة الموضع بعامة لا خلاف عليها والآية دليل على ذلك ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : هم فى منازل مكة سواء ، فينبغى لأهل مكة أن يوسعوا لهم حتى يقضوا مناسكهم ، وقال البىاض وأهل مكة سواء يعنى فى المنزل والحرم ، وأخرج ابن أبى شيبه عن عبدالله بن عمرو قال : من أخذ من أجور بيوت مكة إنما يأكل فى بطنه ناراً " وأخرج ابن أبى شيبه عن عطاء قال : كان عمر يمنع أهل مكة أن يجعلوا لها أبواباً حتى ينزل الحاج فى عرصات الدور ، وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : مكة مباحة لا تؤجر بيوتها ولا تباع رباعها " (٢) وروى أنها كانت تدعى السوائب على عهد رسول الله ﷺ ، ولم تقسم بين القائمين فصارت وفقاً على المسلمين كبقاع المناسك فإن سكن بأجرة لم يأنم بدفعها للحاجة .

١٣ - ومن جوانب هذه المكانة العظيمة أن الله تعالى منع المشركين من الاقتراب من المسجد الحرام فضلاً عن دخوله ، وتحريم الاقتراب أبلف من تحريم المباشرة كما جاء فى تحريم الخمر وتحريم الصلاة أثناء السكر ، وعلى المؤمنين أن يقوموا بمنع المشركين من هذا الاقتراب

(١) قطر فتح القدير ج ٣ ص ٤٤٧ .

(٢) شرح منتهى الإرادات ج ٢ ص ١٤٤ / ١٤٥ .

من المسجد الحرام، وقد بينت الآية الكريمة السبب في هذا المنع وهو نجاستهم ، وعلى المؤمنين أن يقوموا بذلك مهما كانت ظروفهم التجارة والاقتصادية فإن الله سبحانه مالك الملك سيغنيهم ويعوضهم خيراً (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم) والنجس هو القذر ، قال قتادة ومعر: إنهم وصفوا بذلك لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يتجنبون النجسات ، وقيل لأن معهم الشرك وهو بمنزلة النجس . وقد اختلف العلماء في نجاسة المشرك هل هي نجاسة عينية أو حكمية معنوية ؟ فقال الظاهرية والزيدية والحسن البصري وهو محكى عن ابن عباس أن نجاستهم عينية ، وذهب الجمهور من السلف والخلف ومنهم الأئمة الأربعة إلى أن الكافر ليس نجس الذات ولكنه نجس الاعتقاد فالنجاسة حكمية معنوية حيث أحل الله طعامهم وثبت عن النبي ﷺ أنه أكل في آنيتهم وشرب منها وتوضأ فيها وأنزلهم في مسجده مما يدل على أن نجاستهم ليست ذاتية عينية وإنما حكمية معنوية بسبب عقيدتهم وشركهم ^(١) ، ثم اختلف العلماء أيضاً في دخولهم المسجد الحرام هل هو الحرم كله أو المسجد نفسه ؟ كما اختلفوا أيضاً في دخولهم سائر المساجد هل يمنعون منها أيضاً كالمسجد الحرام أو هذه خاصة بالمسجد الحرام ؟ فذهب أهل المدينة إلى منع كل مشرك عن كل مسجد، وقال الشافعي : الآية عامة في سائر المشركين خاصة في

(١) قال ابن رشد : وأما المشرك فلي قوله تعالى (إنما المشركون نجس) فمن حمل هذا على ظاهره قل بنجاسة العين ومن أخرجه مخرج الذم لهم قياسه - كل حي ظاهر العين - فنجاستهم حكمية . ثم رجح الأول عملاً بظاهر الكتاب : قطر بدنية المجتهد ج ١ ص ٦٠ / ٦٤ .

المسجد الحرام ، فلا يمنعون من دخول غيره من المساجد . قال ابن العربي : وهذا جمود منه على الظاهر لأن قوله تعالى (إنما المشركون نجس) تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة ويجب عنه بأن هذا القياس مردود بربطه ﷺ ثمانية بن أثال في مسجده وإنزال وفد ثقيف فيه ، وروى عن أبي حنيفة مثل قول الشافعي ، وزاد أنه يجوز دخول الذمى سائر المساجد من غير حاجة ، وقيده الشافعي بالحاجة ، وقال قتاده إنه يجوز ذلك للذمى دون المشرك ، وروى عن أبي حنيفة أيضاً أنه يجوز لهم دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد ، ونهى المشركين عن أن يقربوا المسجد الحرام هو نهى للمسلمين عن أن يمكنهم من ذلك . وأما العام الذي منعوا فيه فقليل إنه سنة تسع وهو العام الذي حج فيه أبوبكر على الموسم ، وقيل سنة عشر قاله قتاده ، قال ابن العربي وهو الصحيح الذي يعطيه مقتضى اللفظ ، لأن سنة تسع هي التي وقع فيها الأذان والنهي ثم قيل بعد عامهم هذا فيكون سنة عشر ، وقد أخرج عبدالرازق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر قال قال رسول الله ﷺ : " لا يدخل مسجدنا هذا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمكم " قال ابن كثير تفرد به أحمد مرفوعاً والموقوف أصح وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام يتجرون به ، فلما نهوا عن أن يأتوا البيت قال المسلمون : فمن أين لنا الطعام ؟ فأنزل الله (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) قال فأنزل الله عليهم المطر وكثر

خيرهم حين ذهب المشركون عنهم " (١).

١٤ - وليست هذه المكة العظيمة للمسجد الحرام طارئة في الإسلام وإنما كانت له على مر التاريخ حتى ظن بعض الناس أن ترجمتها في النفوس إلى عمارة المسجد وعناية بزائريه من سقاية إلى رفادة تساوى الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله ، فصاح الله سبحانه وتعالى لهم ذلك المفهوم الخاطئ وبين لهم أن هذه المكة وتقديرها يجب أن تتبع من الإيمان بالله والقيام بأوامره من صلاة وزكاة وجهاد ، وأن عمارة المسجد الحرام وسقاية أهله مهما بلغت من المكة والمنزلة فبتها لن تغنى عن الإيمان ، بل ولا تساويه ، بل هي أقل منه وبدونه ستكون هباء منثوراً . جاء ذلك حين تفاضل العباس وعلى فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال العباس حين أسر يوم بدر : إن كنتم مسيقتونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج ونفك العاني فأنزل الله (أ جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام) الآية بمعنى أن ذلك كان في الشرك فلا أقبله ، وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال : نزلت في علي بن أبي طالب والعباس ، وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الشعبي قال : تفاخر علي والعباس وشيعة في السقاية والحجبة فأنزل الله هذه الآية . ولا ينقص ذلك من فضل العمارة والسقاية ولكن يشترط لهما الإيمان أولاً حتى يكونا مقبولين فلا عبرة لأي بر لا يقوم على الإيمان قال تعالى (وقدما إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) وقال (ما كان للمشركين أن يعملوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي

(١) فتح القدير ج ٢ ص ٣٥٠ / ٣٥١.

النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . أ جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون) وهؤلاء المؤمنون العاملون هم أولياء المسجد الحرام وأصحابه وليس المشركين الذين لم يعرفوا له إلا العمارة المادية والصد عنه والصفير والتصفيق (ومالهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانتوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون) .

١٥ - وتحققا لهذه المكانة واستنقاذا للمسجد الحرام من المشركين ، وإسناده للمؤمنين الصالحين ، وتطهيراً له من الأصنام التى عبدت من دون الله ، وعد الله رسوله محمدا ﷺ بفتح مكة ودخول المسجد الحرام فى أمن وأمان هو وأصحابه ثم دخول الناس فى دين الله أفواجا ، وكان صلح الحديبية تمهيدا لذلك ثم كان الفتح الأكبر والتطهير الأعظم للمسجد الحرام ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، وقد حكى القرآن الكريم ذلك فى سورة الفتح حيث رضى الله عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على قتال المشركين ولكن الله تعالى أجل لهم ذلك القتال رعاية لضعفاء المسلمين فى مكة حتى لا يقتلوا مع المشركين قال تعالى (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله

فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) ثم قال (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) قال المفسرون : إن الله سبحانه أرى نبيه ﷺ فى المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية كأنه هو وأصحابه حلقوا وقصروا ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم هذا فلما رجعوا من الحديبية ولم يدخلوا مكة قلل المنافقون : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام ! فلأنزل الله هذه الآية ، ثم كان فتح مكة وتطهير المسجد الحرام ودخول الناس فى دين الله أفواجا سنة ثمان من الهجرة فقال تعالى : (إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) وبهذا انتقل المسجد الحرام وولايته إلى رسول الله ﷺ والمسلمين ليقوموا بعمارته المادية والمعنوية ويحافظوا على طهارته وسلامته من رجس المشركين ، ويصونوا مكانته العظيمة من أى عدوان عليها أو تقصير فيها ، ومنذ ذلك الفتح المبين والعناية به بعمارته وطهارته ونظافته وتوسعته مستمرة حتى قام خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز بأعظم توسعة تمت فيه وجاءت أكبر من جميع التوسعات التى تمت من قبل وأصبح زائرو المسجد الحرام على مدار العام يشعرون بالأمن والأمان ويجدون كل ما يحتاجون إليه فى سهولة ويسر ، ورغم كثرة الأعداد وتجاوزها للملايين لا تقع أزمة فى أى شئ .

١٦- ومن الشبهات التى أثارها أعداء الإسلام حول المسجد الحرام ومكانته ما قاله جولدزهر وادعى فيه أن محمدا ﷺ وأصحابه استمروا على عبادة الأصنام والحجارة غير أنهم استبدلوا هذا البناء الذى يسمونه : " الكعبة " بالأصنام التى كانت من قبل حتى يكون للدعوة الجديدة أسلوب مختلف وتغيير ملحوظ .

وهذا ادعاء باطل يدل على جهل قائله أو خبثه ، فالقرآن الكريم قد شن حملة شعواء على الأصنام وكل ما يعبد من دون الله حتى ولو كان الكعبة ، وقد حاول المشركون أن يغفروا رسول الله ﷺ بكل المغريات ليبقى لهم على الأصنام أو يسلم بعبادتها يوما ويعبدون إلهه يوما فأنزل قوله تعالى (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون . .) (السورة ، وشن القرآن الكريم حملة أخرى على الشرك والمشركين سواء كان بعبادة الأصنام أو غيرها ، بل أحبط الرياء الذى يكون العمل فيه غير خالص لله بل تشوبه شوائب من مراعاة الناس وابتغاء أمور أخرى غير وجه الله ، فאלه سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم .

وتقدس الكعبة وتعظيمها لا يدخل من قريب أو بعيد فى عبادة الله وحده لا شريك له . كل ما هنالك أننا نعبد الله تعالى وحده كما أمرنا ونخلص له وحده ذلك العمل ، فهو الذى أمرنا بالطواف فنطوف استجابة لأمره وإخلاصا له ، وهو الذى أمرنا باستقبال الكعبة فى الصلاة فنولى وجوها شطرها استجابة لأمره وإخلاصا له ، وقد قبل رسول الله ﷺ الحجر الأسود وأمرنا بتقبيله واستلامه ونحن نفعل ذلك طاعة لله ورسوله وتأسيا بفعله ﷺ دون أن يداخلنا أدنى شك فى أنه لا يضر ولا ينفع كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو يقبله : " والله إني أعلم أنك حجر

لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبل ما قبلتك " فكل عملنا وتعظيمنا للكعبة والمسجد الحرام إنما هو من أمر الله وطاعته والإخلاص له واتباع رسوله ﷺ وطاعته كما أمرنا ، وفرق كبير بين من يعبد صنما ويعتقد ضره ونفعه أو يرانى شخصا مخلوقا وبين من يعبد الله وحده لا شريك له وما يستلزم ذلك من طاعته فى كل ما يأمر به والإخلاص فى ابتغاء مرضاته وثوابه وهذا ما لم يفهمه جولدزيهر أو فهمه ولكنه أظهر خبئه وعاوته للإسلام .